الحمصي

# السحر الحلال في شعر الدلال

892.78
D144YRA

108

السحر الحلال

المرحوم جبرائيل الدلال

١٨٢٦ - ١٨٩٥

892.78
D144YRA
c.1

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARY

# السحر الحلال

## في شعر الدلّال

او

ترجمة الشاعر الفاضل الرحّال الاديب البارع جبرائيل الدلّال

رحمهُ الله

بقلم الفقير اليهِ تعالى قسطاكي الحمصي

عُفي عنهُ

طبعت

في مطبعة المعارف باول شارع الفجالة بمصر

سنة ١٩٠٣

## السحر الحلال في شعر الدلال

او ترجمة الشاعر الفاضل الرحال الاديب البارع جبرائيل الدلال رحمهُ الله

علمٌ من اعلام الفضل وبدرٌ من بدور الشهبآء بل انسان عين الظرف والنُبل وآية النباهة والذكآء تفجرت ينابيع الفصاحة على لسانهِ وانقادت ابكار المعاني طائعةً لبنانهِ فاللؤلؤ منظومهُ والوشي مرقومهُ ذو فكرةٍ تسترقُ حرَّ الكلام وقريحةٍ تؤلف بدائع النظام وبيانٍ يصوّر ادقَّ الاوهام للافهام فتنجلي كالحقائق ويصوغ الطف التخيلات والاشارات بكل لفظٍ رائق سقاهُ الدهر كأسَيْ صفوهِ وكدرهِ والبسهُ ثوبيْ بؤسهِ وأشرهِ وما زال بين نحوسٍ وسعود وهبوطٍ وصعود الى ان دعاهُ داعي المنون فقضى فجأةً في اضيق السجون

وُلد رحمهُ الله في الثاني من نيسان سنة ١٨٣٦ وهو سليل بيتٍ كريم من اعرق بيوتات حلب في العزّ والجاه فنشأ في بيت ابيهِ عبد الله الدلال ومجلسهُ اذ ذاك منتدى الفضلآء ومثابة النبلآء يقصدهُ ادبآء الوقت وشعرآؤهُ كفتح الله المراش والد فرنسيس وعبد الله المشهورين ونصر الله الطرابلسي الحلبي الشاعر المشهور وكان والد صاحب الترجمة رحمهُ الله يحب العلم وبنيهِ ويكرم الادب وذويهِ وقد مدحهُ الطرابلسي بقصائد ليس هذا محل سردها منها قولهُ من قصيدة يشكر لهُ بها جميل اياديهِ ويهنئهُ بعقد زواجهِ قال في مطلعها

يا للهوى ما للعذول ومالي  انا قد رضيت بكافة الاحوالِ

ومنها في المدح

الندب عبد الله فخر اوانهِ  نسل الاماجد من بني الدلالِ

فهو الذي يشري الثنآء بمالهِ  ويزين الاقوال بالافعالِ

ومنها

وهو الذي لم يخلُ قطُّ زمانهُ  من غوث ملهوفٍ وبذل نوالِ

وفي ختامها مؤرخاً

واسلم بتأريخي ودمتَ بمنهِ  متمتعاً باللطف والاقبالِ

١٨٢١

وفقد صاحب الترجمة اباهُ صغيراً فاعتنت شقيقتهُ مادلينا بتربيتهِ وهي من فاضلات النسآء ولما اكمل درس مبادئ القواعد العربية ارسلتهُ الى مدرسة عين طورا بلبنان فلم يلبث فيها الا ستة اشهر ثم عاد الى حلب وكأنهُ قد درس الفرنسوية والطليانية سنين طوالاً وذلك لما أُوتيهُ من توقد الذهن وملكة الحفظ وقوة الفهم فاقام بها يطالع الكتب ويدرس العلوم بنفسهِ ودرس قواعد اللغة التركية ومال الى اقتنآء الكتب فلم يقع كتاب نفيس في يدهِ الا اشتراهُ فاصاب حظاً وافراً من علوم العربية وكان يحفظ جلّ ما كان يقرأهُ فكان يتذكر في الخمسين من عمرهِ ما كان قرأهُ مرةً واحدة قبل ذلك بثلاثين سنة . وكان يحفظ ديوان المتنبي واكثر شعر الصفي الحلي ومقامات الحريري وكثيراً من مقدمة ابن خلدون والمعلقات السبع والبردة وطائفة من اشعار العرب وقسماً كبيراً من القرآن الكريم وكانت لهُ مشاركة في

اكثر العلوم ودرس قليلاً فنّ التصوير فاصاب شيئاً منهُ وكان شديد الولوع بالغنآء عارفاً بفن الموسيقى متمكناً من علمي الجغرافية والتأريخ ولهُ رسالة في التأريخ العام غير كاملة وكان يحرز حصةً حسنة من العلوم الرياضية والفلسفة والطب وكان يتتبع العلوم والفنون العصريّة والاكتشافات والاختراعات فكان صدرهُ اشبه بخزانة علوم وفنون فلا يُسأل عن علم او اختراع او مسألة فلكية او سياسية الا ويجيب احسن جواب بل كثيراً ما كان يأخذ في الشرح والتعليل كانهُ من أئمة ذلك الفن فيجيد غاية الاجادة

وكان طيّب الحديث لَسِناً فصيحاً يحب التكلّم فلا يملّ جليسهُ من مجلسهِ شاعراً متفنناً من الطراز الاول حادّ الذهن سريع التصور حلو العشرة لطيف الشمائل خفيف الروح صحيح الانتقاد سريعهُ يميل الى المزاح احياناً جهير الصوت طويل القامة كبير الجسم ممتلئهُ كأنهُ الموصوف بقول الشاعر

جهيرُ الكلامِ جهيرُ العطاسِ  جهيرُ الرؤآءِ جهيرُ النغَمْ
ويخطو على الاين خطو الظليمِ  ويعلو الرجالَ بخَلْقٍ عَمَمْ

وكان قويّ البنية ابيض اللون صبيح الوجه كبير الرأس اشقر الشعر ازرق العينين احسر البصر لا تفارق الزجاجات عينيهِ الا عند القرآءة والنوم وكان الغالب على طباعهِ سلامة الصدر وكثرة الوفآء وحرّيّة الفكر وشدة الذكآء وبالجملة فقد كان جميل الطلعة جليل المنظر عزيز المقام محترماً من خاصّة الناس وعامّتهم لكرم محتدهِ واخلاقهِ وغزارة علومهِ

ولما كان في نحو العشرين من عمرهِ مات لهُ عمٌّ في القسطنطينية بلا عقب وترك ثروةً عظيمة فسافر اليها ليستولي على حصتهِ من تركتهِ فأقام

بها خمسة اشهر ثم عاد الى حلب وقد تعلم اللغة التركية . وبعد رجوعهِ بمدة قصيرة تزوج امرأة من اجمل نسآء حلب بل نسآء سوريا جامعةً بين الذكآء والصيانة . وبعد ذلك بنحو سبع سنين عاد الى القسطنطينية فبقي فيها من سنة ١٨٦٨ الى منتصف سنة ١٨٦٩ وفي تلك الاثنآء نظم من القصائد والمقطعات شيئاً كثيراً نورد بعضهُ هنا على قدر ما يسع المقام . فمن ذلك قولهُ يمدح صديقهُ الأمير محمد أمين ارسلان احد اعضآء شورى الدولة لذلك العهد وهو مما ينسيك لسلاستهِ القند المذوّب بمآء الورد قال طيب الله ثراهُ

يا من لقتل الشجي تعمَّدْ ... وزاد دَلاًّ جفاهُ والصدْ
مهلاً خفِ الله في محبٍّ ... فؤادهُ بالغرام يُوقَدْ
جسمهُ ناحلٌ عليلٌ ... وطرفهُ ساهرٌ مُسهدْ
صبٌّ غدا حينَهُ قريباً ... جفاهُ محبوبهُ وأبعدْ
ادارَ كأساً من مقلتيهِ ... فمال منها سكرًا وعربدْ
وقد حمى عنهُ كأس ثغرٍ ... حبابها لؤلؤٌ منضَّدْ
تذود ذا الوجد عن لماهُ ... لواحظٌ سيفها مجرَّدْ
يشهر حرباً لمن عصاهُ ... وفي فؤاد المحبّ يُغمدْ
جرَّدهُ شادنٌ بديعٌ ... قدتاه عُجباً بالعطف والقدْ
أزرى ببدر السمآء نورًا ... وفاقهُ بالجبين والخدْ
يلحى على عشقهِ عذولٌ ... أتهمَ في لومهِ وأنجدْ
ملتُ ارتياحاً اليهِ لما ... كرَّرَ لي ذكرهُ وردَّدْ

بالله يا مقلتيهِ رفقاً مُضنا كما قد تجاوز الحدْ
وانتما يا نهديهِ صدري عليكما حسرةً تنهدْ
ويا قواماً لهُ قويماً لطعن قلبي لا تمدُدِ اليدْ
الا تراني دخلتُ أمناً حمى الأمير السامي محمدْ
مولىً لهُ عندليبُ مدحي على غصون القريض غرد
تفعل اوصافهُ بعقلي فعل العقار الحالي المبرّدْ
فكرٌ هو البرق في مضاهُ عزمٌ حكى الصارم المهندْ
ومنها يا سيداً فضلهُ بحزمٍ قصرَ المعالي بنى وشيّدْ
دم سالماً للعلوم فخراً وللمعالي صرحاً ممرّدْ
واقبل بعفوٍ قريض خلٍّ يهدي اليك الثنا المؤبّدْ

وقال يمدح ذا الوزارة جودت باشا رئيس مجلس الأحكام العدلية لذلك العهد

لا تعذل المشتاق في احوالهِ فتزيدهُ شوقاً بحب غزالهِ
صبٌّ كئيبٌ مغرمٌ لا تنتفي اوقات طيب الوصل من آمالهِ
قدهزّهُ ذكر الحمى وجداً فلم تخطر مقالة عاذلٍ في بالهِ
يحيا بتذكار الحبيب ووصلهِ ويموت بين دلالهِ وملالهِ
ويروقهُ عذلٌ لترديدٍ بهِ ذكراهُ في قيل العذول وقالهِ
ثملاً غدا لما بدا ذاك الشذا من ورد وجنتهِ وعنبر خالهِ
لاتسأل الصب الشجيّ عن الهوى فسقامهُ يغنيك عن تسآلهِ
أنّى التداوي والحبيب ممانعٌ عن وِرد كوثرهِ وعن جريالهِ

يشفي ارتشافُ الثغر من معسولهِ  طعناتِ ذاك القدّ من عسّالهِ
رشأ سطا بفواترٍ كبواترٍ  سطوات جودتَ يوم هول نزالهِ
الأروع الشهم الوزير الماجد الـ  مولى الخطير سما العلا بخلالهِ

ومنها

العلم بعض صفاتهِ والفضل بعـ  ـض خلالهِ والحلم بعض خصالهِ
والجود من اسمآئهِ والسعد من  قُرنآئهِ واليمنُ من اقبالهِ

ثم رجع الى حلب واستصحب قرينتهُ معهُ الى اوروبا فجالا في كثيرٍ من مدن فرنسا واقاما حيناً في عاصمتها باريس ثم عادا منها الى ايطاليا وبقيا مدة في رومة عاصمتها ثم عادا الى حلب ولم يلبثا بها الا بضع اشهر ثم قفلا الى فرنسا ونزلا مدينة مرسيليا . وبعد مدةٍ قصد صاحب الترجمة بلاد البرتوغال لقضآء حاجة كانت في نفس احد اصحابهِ من الاشراف كان توسل اليهِ في التماسها من ملك تلك البلاد فلما حلّ عاصمتها ليزبون لم يرَ بها ما يبهج الخاطر او يسرّ الناظر فقال

ياوحشة الاحباب في ليزَبونْ  اصبحتُ فرداً ما بها لي زَبونْ
وكلما مرَّ على خاطري  ذكر اصيحابيَ هاج الشجونْ
جئتُ على ما مرَّ من عادتي  اقطع برًّا بعد بحرٍ وجونْ
وافيتُها من بعد فرط العنا  فلم اجد فيها سرور العيونْ
قد سارت الركبان في ذكرها  وقصّرتْ في وصفها الواصفونْ
كل فتاةٍ وجهها اشوهٌ  بالقبح تحكي خلقة الحيزبونْ
اسم بلادها على صدرها  يُتلى وفي الاعطاف شرح المتونْ

ثم انهُ تشرف بمقابلة ملكها فاجاب الملك سؤلهُ وبلغهُ مأمولهُ وربح من ذلك مالاً جزيلاً . ومرّ في طريقهِ على اسبانيا واحبّ ان ينظر الى آثار العرب في بلاد الاندلس على حدّ قول الشاعر

ان آثارنا تدلّ علينا  فانظروا بعدنا الى الآثارِ

فجال في اكثر مدنها العظيمة تصحبهُ قرينتهُ وكانت لهُ خير رفيق ونديم حسبما حدثني رحمهُ الله عن ذلك فكان يبوح لها بما كان يشعر بهِ من سرور وحزن لدى معاينتهِ تلك الآثار الناطقة بفضل العرب وما كان لهم هناك من ضخامة الملك واتساع الحضارة وكانت رحمها الله تقرأ اقصى وجدانات نفسهِ فيجد لذلك لذةً عظيمة وهي لذّة مشاركة الافكار وتوارد الخواطر التي لا يجهلها الا الغبيّ الخامل وكان يسردُ لها في تلك الاثناء ملخص تأريخ العرب في الاندلس ويعدّد لها القصور والمساجد والارباض الشهيرة في كل مدينة من مدنها العظيمة ولما وصلا الى مدينة قرطُبة وكان وصولهما اليها عند طلوع الشمس تذكّر بيتي المعتمد بن عبّاد ملك تلك البلاد يدعو بهما الى ضيافة قصرهِ بعض الوزرآء وقد بلغهُ انهم يتنزهون في رياض الزهرآء وهما

حسد القصر فيكم الزهرآء  ولعمري وعمركم ما اساء
قد طلعتم بها شموساً صباحاً  فاطلعوا عندنا بدوراً مساء

ورايت لهُ رقعة بخطهِ كأنهُ كتبها من باريس الى احد اصحابهِ بحلب يقول : فبتّ كأني اشاهد من الامرآء والوزرآء خيال المعتمد بن عبّاد صاحب قرطبة واشبيلية وابي الحجاج وبني السراج وبني المظفر ومن العلمآء والشعرآء

ابن خلوف وابن زيدون وابن عبدون وابن خاقان وابرهيم بن سهل وكنت ارى آثارهم واضحة لا فقط من الاسماء الباقية على كثير من الاماكن والابنية العربية الشامخة بل ايضاً من هيئة الجنس والسحنات الدالة على الاصل العربي واخص ذلك العيون والحواجب :

ثم انهُ عاد وقرينتهُ الى مرسيليا وبعد مدة اصيبت بمرض عضال فلم يقبل فيها ملك الموت شفاعةً ولا نذوراً

واذا المنيّة انشبت اظفارها  الفيت كل تميمةٍ لا تنفعُ

فوارى الردى منها بدراً منيراً وغصناً نضيراً وجزع رحمهُ الله لموتها جزعاً عظيماً وقد جرحهُ موتها جرحاً اليماً وفي ذلك يقول

لي حالةٌ يكتمها تجلدي  اظهارها يصدع قلب الجلمدِ
قد شرَّد الغمُّ جناني بالأسى  وقيَّد الهمُّ لساني ويدي
فباطنٌ تبكي لهُ احبتي  وظاهرٌ تضحك منه حسَّدي
وما جرى نفى الكرى وفى الورى  بعد الذرى عدتُ أرى في الوبَدِ
من محنتي وفكرتي ولوعتي  تجلدي تسهدي تنهدي
وهمتي تأبى الخمول فترى آل  جدٍّ مقيمي والقضاء مقعدي
على شبابي والبلاد والغنى  واحسرتي واحزني واكمدي

ولم يُرزق منها ولداً . فلم يقم في مرسيليا بعدها الاّ قليلاً ثم سار يؤمّ باريس فاقام بها حيناً من الدهر ثم قصد بلاد الجزائر وعاد الى بلاد البلجيك ثم رجع فالقى عصا التسيار في باريس وهناك انتدبهُ وزير المعارف للتحرير في صحيفة الصدى العربية التي كانت تصدر فيها بأمر الحكومة الفرنسوية

لكنهُ لم يكن يكتب فيها ما يريد بل ما يُراد بايعاز وزارة المعارف الفرنسوية المشار اليها وكان يترجم بين سفرآء الحكومات العربية الذين كانوا يقصدون باريس كوزرآء مراكش وزنجبار وبين وزرآء فرنسا وغيرهم من اهل باريس واستحكمت بينهُ وبين السيد موسى المفضّل وزير سلطان مراكش لذلك العهد مواثيق الوداد فطلب اليهِ ان يمدح سلطانها فمدحهُ بقصيدة من غرر القصائد وكان لها عند حضرة السلطان سيدي حسن احسن قبول قال رحمهُ الله

من مجيري من لحظهِ البابليّ ونصيري من قدّهِ السمهريّ
شادنٌ كلّما رنا وتثنّى شمتُ بدراً علا على خطّيّ
ان تلمني على التهتّكِ قام اُل عذرُ لي من جمالهِ اليوسفيّ
فالهوى ان اشاب فودي فانّ اُل نارَ منهُ شبّتْ بقلبٍ فتيّ
او اذاب الجوى فؤادي واضحت مهجتي منهُ فوق جمرٍ ذكيّ
او رمتني صروف دهري بخطبٍ شاب من هولهِ عذار الصبيّ
فلاذي من كلّ ما حلّ بي السلطانُ مولايَ ذو المقام السنيّ
حسنُ الرأي والخلائق والأفعال حامي الحمى سليل النبيّ

ومنها

شرفٌ دونهُ النجومُ محلاً وعلآءٌ مسلسلٌ عن عليّ
ومعالٍ اذا تجلّى سناها لاح برقٌ من نورها العلويّ

ومنها

وكلِ الامر في تدابير ذا الملكِ م واعبآئهِ لحبرٍ نقيّ

للوزير الكبير والجهبذ النحر م يرِ موسى المفضَّلِ العبقريِّ

ومنها

وبآرائهِ تمهدت الأحـ والُ طرًّا وذلَّ كل كميِّ

ولكم قرَّت البلاد ودانت كلَّ دانٍ منها وكلَّ قصيِّ

وفي تلك الاثناء زار باريس جلالة شاه ايران ناصر الدين شاه فطلب اليهِ سفيرهُ في باريس اذ ذاك يعقوب خان وكان من أشد المعجبين بذكائهِ وعلومهِ وسرعة خاطرهِ ان يمدح جلالتهُ بقصيدة فمدحهُ بهذا الشعر الذي يزري بعقود الدرّ

يا أيها الملك المظفَّرْ ذوالبطش والليث الغضنفرْ

يا ناصر الدين الذي في الملك قام مقام حيدر

ومنها فالسلم اوفى واقياً ولثروة البلدان اوفر

والعدل ان عمَّ المما لكَ شاد علياها وعمَّر

ومنها فالباقيات الصالحا ت على مرور الدهر تذكر

ومنها كالبرق نورًا خيلَ ما ء فرندهِ بالصقل جوهر

يرد الوقائع ابيضاً يَقَقاً ويصدر وهو احمر

ومنها فهناك شمل المجد يُنظَمُ م حيث هام الضدّ تُنثَر

بعزيمةٍ علويةٍ فتكاتها تبقى وتُذكر

ومنها فسنانهُ القتّال أزرقُ والجوادُ اغرُّ اشقر

وقد امتطى ظهر المُشهَّر م وانتضى للحرب مُشهَر

في معركٍ كالبحر لكنْ م موجهُ زَرَدٌ ومِغفَر

والموتُ دار وقد علا  من نقعهِ غيمٌ كنَهْوَر
رَمِدَت لهولٍ منهُ عين  م الشمس واكتحلتْ بعِثْيَر
جَمَدَ النجيعُ بهِ فعا  دَ صعيدُهُ صلباً كمرمر
ومنها تلك الذوابل كاليرا  ع بها الفتوح غدت تُسطَّر
كتبت على صدر العدوِّ  م الذل لمَّا أنْ تجبّر
وغدا النجيع مدادَها  والنقعُ رملٌ حين حبَّر
ومنها يا سيفهُ القصّال إشربْ  م من دما قتلاك واسكر
صلّي لربك حيث نلتَ  م الفوز بالاعداء وانحر

وبيت الختام

وختامها من طيب ذكر  م ك والثنا مسكٌ وعنبر

وكانت بينهُ وبين اكثر كتاب العصر وشعرآئهِ مراسلات ومساجلات تعدّ من الباقيات الصالحات واخصّها القصائد الرنّانة التي كان يراسلهُ بها عشير صباهُ الشاعر المشهور المرحوم فرنسيس المراش فمنها القصيدة البآئية ومطلعها

اخذت بنا نفحات هند مع الصبا  حين انجلت كالشمس لكن في خبا

ومنها الداليّة واولها

محاجر صبٍّ سافحاتٌ سواهدُ  لهنَّ الغوادي والدراري شواهدُ

ومنها اللامية واستهلالها

لا كنتُ صباً صبا للخدّ والخالِ  ان كنت اسمع عذل العاذل الخالي

وكلها مثبتة في ديوانهِ المشهور بمرآة الحسنآء . ومما كتبهُ الى صديقهِ

المراش المومأ اليهِ من باريس وهو من شعر صباهُ

لي النجم في ليلٍ اقاسيهِ شاهدُ  باني مشوقٌ ساهر الطرف ساهدُ
ملوَّع قلبٍ بالاحبةِ مولعٍ  حليفُ سقامٍ وجدهُ متزايدُ

ومنها

وجاد الحيا تلك الربوع واهلها  فهم لي من الدنيا المُنى والمقاصدُ
مواطنُ عزّي والشبيبةِ والصفا  مناهلُ انسٍ قد صفت وموارِدُ
مساحب اذيال السعادة والهنا  قضيتُ بها الاوطار والعيش راغدُ
تغازلني الغزلان فيها وتبتغي  وصالي رَبّاتُ الجمال الخرائدُ
قضى قدَري بالبعد عنها لشقوتي  على الرغم واشتدت عليّ الشدائدُ
بارض جفاني السعد فيها فقد يُرى  بها خاملاً ذكري وفكري خامدُ
وقاطعني اهلي بها ومعاشري  وصارَمني فيها طريفٌ وتالدُ
احبّايَ قد شطت دياريَ عنكمُ  ودهريَ فيما ابتغيهِ يعاندُ
تنهُّد اشواقي لكم والقصائدُ  بها القصد انتم لا الحسان النواهدُ

ومنها

فؤادي قريبٌ منكمُ في بعادهِ  وعن غيركم في قربهِ متباعدُ

ومنها

ومن كان اولى من فؤادي سلوةً  ولكنّ طبع النفس للنفس قائدُ
فياليت شعري هل لشخصيَ ذاكرٌ  وهل عندكم لي بعد بعدي مواردُ
ويا ايها المرّاش من انت بينهم  عشير الصبا الخلّ الوفيّ المساعدُ
اتدري بما قلبي يجنّ من الولا  وما كبدي شوقاً اليك تكابدُ

واني في حفظ الاخاء متيمٌ فهل انت ولهانٌ كوجدي واجدُ
فيامن على الشهباء ضاء شهابهُ لك الفوز فيما نلت انك واحدُ
فانت ربيعٌ في ربوعٍ خصيبةٍ ثناك بها يحيي وفضلك خالدُ

وكتب من باريس الى بعض خلانهِ

كتبت اعزّك الله وقد وصلني طرسك الذي فاق الدر النضيد ببهجتهِ وازرى على رخيم التغريد بلهجتهِ واني لأحقُّ بابتدائك بما ابتدأتني بهِ من الصلة تفضلاً ولكن قُدِّرَ عليَّ لك السبق وان تكون في كل شيء اوّلا فلساني عاطرٌ بشكرك وقلبي عامرٌ بذكرك غبتَ اوحضرت سرتَ او اقمت فوالله لم اذكر ايام اللقاء ولذّتها الاّ وطارت نفسي شعاعاً ولا تخيلت ساعات الوداع وكربتها الاّ وزادني الشوق التياعاً

غضارة عيشٍ اظلم الكون بعدها وعند غروب الشمس يُعرف بُعدها
فان تأملتُ قصر مدة ألفتنا هاج بي الشوق آلاما وان تذكرت
حميم صحبتنا زادني التذكار هياما واذا فكّرت في فرقتنا قلت ما كان
اللقاء الاّ مناما

وكتب من باريس ايضاً الى اخيهِ الفاضل المأسوف عليهِ نصر الله يعزيهِ بوفاة صغيرةٍ لهُ

ادّرع اخي برداء الصبر الجميل وارتدع بزواجر الرأي الاصيل وقل حسبنا الله ونعم الوكيل وكن فوق مَن رأى وأد البنات ستراً لهنَّ حنوًّا واشفاقا ودون مَن اودى بهِ مصابهنَّ لوعةً واحتراقا ومثلك من حنكتهُ الايام خُبرا وعرف الحادثات وقلّبها بطناً وظهرا فلا يرتاع ان ذوى احد

الفروع ما دام الاصل مسلمًا ولا يقيم حول الشجر ان سقط بعض الثمر عويلاً ومأتما فاشكر على من بقي نعم الله واصبر لفقد من مضى على حكم الله واحتسب عندهُ مصابك لتمحيص السيئآت وعدّ رضاك بما قدم حسنةً من الحسنات واثبت على ما نابك غير قلقٍ ولا واجد وكن المعزّى لا المعزّى به ان كان لا بدّ من الواحد

ولهُ مدة اقامتهِ الطويلة في باريس من النظم الشائق البديع ما يخجل انوار الربيع من ذلك قصيدتهُ الحآئية بعث بها الى احد الادبآء من اصحابهِ في الشهبآء يتشوّق الى وطنهِ ويحنّ الى ماضي زمنهِ وانا ادرجها بتمامها لطلاوتها وحسن انسجامها قال غفر الله له

حيّ الحيا تلك المغاني الفساح ... كم في فناها هام صبٌّ فساح
اربى على تلك الربى وجدهُ ... فطاح في آكامها والبطاح
تذكر الاحباب وقت المسا ... فبات يرعى النجم حتى الصباح
وقام يسعى سحراً عند ما ... اذكرهُ الصبحُ وجوهَ الصباح
وهزّهُ شوقاً نسيمٌ سرى ... مرنّحاً بان قدود الملاح
من كلّ حسنآء ورعبوبةٍ ... فتانة الالحاظ خودٍ رداح
جفونها دلاً اذا كسّرت ... فجوهريّ الثغر يحوي الصحاح
يهدي بهاها الحسن ثوب السنا ... ان زان ذات الحسن يوماً وشاح
وقامة مع لين اعطافها ... اشدّ فتكاً من عوالي الرماح
من لحظها والخد والثغر وآل ... راحات دارت بيننا كأسُ راح
فلا تلم جهلاً اخا صبوةٍ ... من سكرهِ في ذا وذا غير صاح

نَبَّهُ ايماضُ جفنٍ لها بالصمت يروي كلماتٍ فِصاح
ارجفَ بالسلوان قومٌ وهم اكذبُ فيما زعموا من سجاح
ليس لنفسي دونها مطمعٌ ولا بعيني لسواها طماح
لم استر المكتومَ من لوعتي وفي هواها لذَّ لي الإفتضاح
في حبها والله يا عاذلي لي أذُنٌ صمآء عن لحي لاح
الى متى تجهدُ في عذل مَن باح بما يتعبهُ فاستراح
هيَّجهُ ذكر زمانٍ مضى ساعدَهُ السعدُ بهِ والنجاح
وطيبُ وقتٍ مرَّ مع ظبيةٍ في وجنتيها للحيآء اتّقاح
ومجلسٌ زاهٍ تغنّت بهِ بلابلٌ تطربنا بالصياح
ايام وصلٍ نتعاطى بها من خمرةِ الحب كؤوساً طِفاح
في ظلّ روضٍ حُجِبتْ شمسهُ غَبوقُهُ يدعو الى الإصطباح
أنَّ بهِ الرعدُ فابكى الحيا وردَّد القُمريُّ شجواً وناح
وانهمر القطرُ بارجآئهِ فاصبح الدَّوحُ بليل الجَناح
بتنا كسرٍّ بين ازهارهِ يكتمنا الورد الجَني والأقاح
وحين لاح الفجر منها بدا في طي ذاك السرّ نشرٌ وفاح
ونبَّه الورقَ نسيمُ الصبا وحيعل الداعي بصوت الفلاح
قمنا وحسن الظنّ احرى بنا لحرمة العشاق لا تستباح
اوقات انسٍ كنت واحسرتي خِلواً بها اسحبُ ذيل المِراح
جازت كومض البرق في سلكهِ واسرعت سيراً كمرّ الرياح
او عجلات النار في جريها او طائرٍ فرَّ يروم السراح

هذا وصحبي ذكرهم خالدٌ ... في خلدي لم يمحهُ قطُّ ماح
احبتي رفقاً فمن ودّكم ... والله ما لي طول عمري براح
بعادكم برّح بي فاتقوا ... الله وكفّوا عن فؤادي الكفاح
بمهجة الصبّ سمحتم فهل ... بالله خلتم كرماً ذا السماح
قد ضاق رُحب الصدر عن سرّهِ ... وصبرهُ عِلَّ فافشى وباح
حرّمَ قتلَ الصبِّ شرعُ الهوى ... فمَن لكم بالله قتلي أباح
والبين اودى باصطباري فما ... عليَّ ان قضيتُ شوقاً جُناح
بي تعبٌ ان مرَّ ذكرُ السوى ... ولي اليكم طول عمري ارتياح
قريح قلبي اذ اناجيكمُ ... يملي عليَّ النظم دون اقتراح
فهل تُرى يعود ما مرَّ لي ... معكم من اللذات والانشراح
ايامَ جمع الشمل لهفي على ... زمانهِ الزاهي تقضى وراح
فان يثُبْ دهري ويرجعهُ لي ... قابلتهُ عن ذنبهِ بالسماح
لكن صروف الدهر ان عاندت ... هيهات ان يرتدَّ منها جماح

ومع ما يُرى على ظاهر هذه القصيدة من مسحة الخلاعة والسرور فجرح الحزن يُستشفّ بها من خلال السطور

ونُعيتْ اليه بعد ذلك شقيقتهُ صوفيا وقد قضت دون الثلاثين في منزل زوجها بازمير فقال يرثيها

أثرى الحبيبة باكرتكَ غوادي ... دمعٍ يُصعّدهُ زفير فؤادي
فالى استلامك والتزامك والطوا ... ف بك اشتياقي عاد واستعدادي
نذرٌ على قلبي ازورك ساعياً ... والدمع مآقي والتلهف زادي

وأصيح والعبرات تخنقني اسىً  والحزن يخفي الصوت في انشادي
يا ليت شعري والبلاد بعيدةٌ  هل تسمعين شقيقتي فانادي
أغريبة الاوطان هل من عودةٍ  تُرجى فذكركِ لم يزل في النادي
حق الطبيعة ان اكون مقدَّماً  فعلامَ قد اخلفتِ في الميعادِ
ما كان قط البين جال بخاطري  ابداً وبعدكِ لم يكن بمرادي
يا ليتهُ ابقاكِ لي واحلَّ بي  كيد العِدى وشماتة الحسّادِ
هلاَّ حِمامي حُمَّ يوم فراقنا  لما بركبكِ سار عني الحادي
مَن للتصوّن والحجال وللحجى  والبِشر والاضياف والوفّادِ
مَن للعفاف وللجمال وللذكا  واللطف مَن للاهل والاولادِ
شطَّ المزارُ واصبح الأَخوان بال  شهباءِ ذاكِ وذا بغربِ بلادِ
لو كان يسمح ان يساومنا القضا  او يرتضي لكِ فديةً من فادِ
لَفداكِ كلٌّ والنفوس نفائسٌ  بالروح ليس بطارفٍ وتلادِ
اسنت قلوب اقاربٍ واباعدٍ  وبكت عيون احبةٍ واعادي
يا حسرتي ومصابنا تأريخهُ  عند الفراق تفتُّتُ الاكبادِ

١٨٧٥

وقال غفر الله لهُ

لاقِ هولَ الزمان دون اعتراضِ  لقضاهُ ولا تكن غير راضِ
فعجيبٌ لمن درى الدهر ان يذ  هل من جور حكمهِ والتقاضي
واخو الحزم مَن تلقَّى بلاهُ  والرزايا بالازدرا والتغاضي
صارفاً اسودَ الليالي بجمع ال  صُفر حتى فاجاهُ صبح البياضِ

وفقيرٍ تراهُ خلواً من الهمّ ٭ وان بات وهو خالي الوفاضِ
انما هذهِ الحياة منامٌ ٭ يُعدِم المرءَ لذّة الاغماضِ

ومنها

من غدا عاشقاً فانيَ سالٍ ٭ عن هوى الغيد والجفون المراضِ
اصبح الجاهلُ المغفَّلُ صباً ٭ لاهياً بالمجون والاحماضِ
في زمانٍ بهِ قلوب ذوي اللبّ ٭ لنبل الخطوب كالاغراضِ
قصُرت بالشقا الحياة جزافاً ٭ ثم مرّت كسرعة الايماضِ
وقضى الدهر ان يُعذَّبَ ذو العقل ٭ واضحى في حكمهِ شرَّ قاضِ
لنفيس النفوس بالفتك يأتي ٭ بفعالٍ تجوز حدّ المواضي
كيف نلتذُّ بالوجود وفيهِ ٭ كل حالٍ تحول والكلُّ ماضِ

وكان يردهُ في كل عام مالٌ من ريع املاكهِ بحلب فينفقهُ مع جميع ما كان يربحهُ في باريس وقد زرتهُ فيها وانا يومئذٍ (سنة ١٨٧٩) مقتبل الشباب غض الاهاب فرأيتهُ في حسن حال ونعيم بال تتصبّاهُ الحسان وهو في نشاط الشبان يألف مغازلة الشموس ويأنف من تعاطي الكؤوس يخلب العقول بسحر بيانهِ ويملك القلوب بحلاوة لسانهِ قد تولّع بباريس وضواحيها وعشق غوانيها ومغانيها وقد انشدني لنفسهِ بيتين فردين عارض بهما هذين البيتين

بيضٌ اوانس ما همنَّ بريبةٍ ٭ كظباء مكّة صيدهنَّ حرامُ
يُحسبنَ من لين الحديث زوانياً ٭ ويصدُّهنَّ عن الخنا الاسلامُ

فقال عفا الله عنهُ

غيدٌ سواحر ما ادّعينَ بعفةٍ  كذباً ، رامةَ صيدهنَّ حلالُ
يُحسبنَ من فرط الدلال حرائراً  وتسوقهنَّ الى الهوى الاميالُ

ثم قدم باريس خير الدين باشا وزير باي تونس فاتخذهُ نديماً وجعلهُ امين سرّهِ وكلّفهُ ترجمة رسالات عديدة سياسية من العربية الى الفرنسوية وتهذيب بعض الرسائل التي كان يكتبها الوزير بالعربية وتوثقت بينهما عرى المودّة فلم يكن يستغني عنهُ يوماً حتى انهُ استصحبهُ معهُ الى حمامات ڤيشي حيثما كان يذهب اكثر رجال السياسة من سائر البلاد للمذاكرة في المهمات في صيف كل عام متسترين ببراقع التداوي والاستحمام وكانت اكثر ايام فاضلنا في باريس من اطيب ايامهِ غفر بها للزمن جلّ آثامهِ ومن حسان بنات افكارهِ وغُرر اشعارهِ الموشح الذي مدح بهِ خير الدين باشا وهو

ساعدَ الحظَّ بذا اليوم السعيدْ  طالعٌ ميمونْ
فغدا عودُ اللقا ابهجَ عيدْ  صفوهُ مضمونْ

جرَّد البرقُ على عنق الغمام  صارماً بتارْ
فانبرى يفتك في جيش الظلام  آخذاً بالثارْ
وهفا خفقاً كقلب المستهام  إثرَ ركْبٍ ثار

ومنهُ

وحبتني فوقَ ما كنتُ أُريد  للصفا عربون
مطلباً من املي كان بعيد  وطماعي دون
ليلةٌ ما شابها صرف الزمان  منهُ بالتعكيس

فدراريها كعقدٍ من جُمان  وسطهُ البرجيس
بتُّها ضمن بساتين الجنان  في حمى باريس

بين اشجارٍ لها طلعٌ نضيد  يُفرح المحزون
حيثما الاطيار تبدي وتعيد  شجوها الملحون

تمّ سعدي لو بها كنتُ انال  وصلَ ذات التيه
سبت الصبَّ فاضحى من ضلال  هائماً في تيه
ما عليها لو بزورٍ من خيال  زائراً تأتيه

لحظها الفتّاك فصّالُ حديد  تحت قوس النون
انزلَ الله بهِ بأساً شديد  عضبُهُ مسنون

برُموز الغمز من تلك العيون  حيرة المشتاق
مذ رأى في غنجها السحرَ فنون  سبّحَ الخلاق
نال اجراً عن تباريح الشجون  سعيهُ إخفاق

وغدا حظُّ معناها العميد  صفقةَ المغبون
ان قضى عشقاً بها فهو شهيد  اجرهُ موزون

خصرها الناحلُ في دقّتهِ  تُضربُ الامثال
ولطيف الجسم من رقتهِ  لو تمادى سال
وسنانُ الطرف في زُرقتهِ  تكمنُ الآجال

ومنهُ في التخلص الى المدح

بثق الصبحُ مذُ الليلُ انقضى ضوءهُ في الحين
نورهُ فضَّضَ ارجآء الفضا فهدى السارين
خلتهُ لما على الكون اضا وجهَ خير الدين

وكان العالم الفاضل عبد الله المراش رحمهُ الله من اشدّ المعجبين بسرعة خاطرهِ وفرط ذكآئهِ وحسن بيانهِ ووفور حفظهِ وقد جمعت بينهما في باريس الوطنية والجوار ولحمة الادب فبقيا دهراً مصطحبين الى ان لجَّ بصاحب الترجمة داعي البين

ثم لما انتدب جلالة السلطان المعظم عبد الحميد خان الثاني ادام الله نصرهُ حضرة الوزير خير الدين باشا رحمهُ الله لمنصب الصدارة كتب الوزير المشار اليهِ الى فاضلنا يستدعيهِ الى القسطنطينية فلبى امر الوزير وطلع في افقها طلوع البدر المنير وحلّ بها حلول الندى في الروض النضير وكان يأكل على مائدتهِ ويملي على سمعهِ درر مفاكهتهِ ثم انتدبهُ لانشآء صحيفة السلام فقام باعبآئها احسن قيام وكان الصدر ينشر بها آرآءهُ السياسية وافكارهُ في طرق الاصلاح وعُرفت انها جريدة الصدر وقد أرخ ظهورها يومئذٍ المرحوم ابرهيم كرامة وهو ابن الشاعر المشهور بطرس كرامة بهذين البيتين

نُشرت صحيفتنا السلام ونشرها قد طاب يا اهل الوفآء لديكمُ
ان ضنَّ بالخبر الصحيح مؤرّخٌ يتلو حوادثهُ السلام عليكمُ

١٣٠٢

ثم أُلغيت الصحيفة المذكورة وكان فاضلنا قد حاز شهرةً ونال مكانةً عند جميع الافاضل من الوزرآء كذي الوزارة منيف باشا ناظر المعارف لذلك العهد وذي الوزارة حسن فهمي باشا ناظر العدلية وذي الوزارة والسيادة الشريف عون الرفيق باشا فكان يقضي لياليهُ بينهم وهم ينهلون كؤوس منادمتهِ الصافية ويردون حياض علومهِ الواسعة الوافية ويخوضون في اكثر الفنون والعلوم ويتفكهون بالمنثور والمنظوم ويتعجبون مما أوتيهُ من فصاحة اللسان وسعة الحفظ وحسن البيان وكان يتردد الى مجلس الوزير المنيف شيخٌ فضوليٌّ من اهل مرّاكش وكان الوزرآء قد ملوا من محادثتهِ واشاروا الى فاضلنا ان يريحهم من مجالستهِ وفيما كان ذات ليلةٍ يجادلهُ بحضرة الوزرآء في مسئلةٍ من مسائل الصرف نظم فيهِ هذين البيتين وقال لهُ كيف تصرّف هذا الشعر ثم تلاهما

اتانا عالم من ارض فاسٍ يجادلُ بالدليل وبالقياسِ
وما فاسٌ ببلدتهِ ولكن فسا يفسو فسآءً فهو فاسِ

فاغرب الحضور في الضحك اما الشيخ فنهض لساعتهِ وهو يتمتم ويشتم ولم يعد بعد تلك الليلة الى ذلك المجلس . ثم استقال ذو الوزارة خير الدين باشا من منصب الصدارة ووردت على فاضلنا الرسائل تترى من رئيس المكتب الملكي في ڤيانا يطلب بها اليهِ ان يكون استاذاً اول للغة العربية في المكتب المذكور فرحل اليها بعد ان استأذن الوزير المشار اليهِ وذلك سنة ١٨٨٢ فلبث في المكتب المذكور سنتين والّف لتلامذتهِ رسالةً في الهمزة واحكامها ورسالة ثانية في قواعد اللغة العربية تقرّب منالها على الطالبين من الفرنج

( ولهُ رسالة في ملخص التأريخ العام ) ـ وكلها لم تطبع عدا روايات كثيرة ترجمها عن الفرنسوية وبعضها مطبوع وهو نادر الوجود ـ . ورأى من حفاوة رئيس المكتب ومعلميهِ وتلامذتهِ بهِ ومعرفتهم شرف قدرهِ واجلالهم منزلتهُ ما حبّب اليهِ البقاء فيهِ ولكن

ما كلّ ما يتمنى المرء يدركهُ  تجري الرياح بما لا تشتهي السفنُ

فسار من ڤيانا قاصداً زيارة آلهِ في حلب وذلك في صيف سنة ١٨٨٤ بعد ان طال رحيلهُ عنها نحو عشرين عاماً وقد طبقت شهرتهُ الآفاق واشرأبت لرؤيتهِ الاعناق فشرق بها شروق البدر في الليل البهيم وحلّ بها حلول البرء في جسد السقيم واقام في منزلهِ مجلساً للآداب جمع فيهِ شتيت ذوي الالباب لم ترَ مثلهُ اعين الزمان منذ عهد بني حمدان فكان غرةً في جبين العصر وقلادةً في جيد الدهر قد ضمّ كل شاعرٍ اديب وفطنٍ لبيب ولَسِنٍ اريب وظريفٍ عجيب وكان هو انسان عين ذلك المجلس ولسانهُ وسحبانهُ المصقع وحسّانهُ بل النديم الذي يدير من لفظهِ اصفى الشمول بل الساحر اللاعب بالعقول فلم يكن يُسمع في ذلك المجلس الأشعرٌ نفيس وادبٌ جميل وجدالٌ مفيد وبحثٌ جليل ولفاضلنا في كل يومٍ فتحٌ جديد يدلّ على مالهُ في كل علم من الباع المديد وشعرهُ يُسيّر ذِكرَه بل ذكرهُ يسيّر شعرَه وكان لهُ في نظم الموشحات المسماة بالقدود ما يَشرق بسلاستهِ حلق الكاشح ويُطرَف طرف الحسود فمن ذلك قولهُ على وزن الأُغنيّة المشهورة بيا ناري عل عذّالِ يا ناري عليه

لازمة

جرّد العضبَ المُرهفَ من مقلتيهْ ظبيٌ فتانٌ اهيفْ روحي بيديهْ

دور

حاز كل الالطافِ بالاعطاف ولآلي الاصدافِ من شفتيهْ

دور

قانعٌ بالوصالِ من خيالِ ميتٌ يحيي الليالي شوقاً اليهْ

دور

صبٌّ ضعيف الحالِ ذو بلبالِ يرى سود الليالي من سالفيهْ

دور

يخفي نار الاشواقِ بالاطراقِ خاشعاً بالاحداقِ ذلاً لديهْ

دور

حارت فيهِ افكاري جلَّ الباري انّ آسَ العذارِ يحمي خدّيهْ

دور

بالصوتِ الشجي العذبِ سبى لبي يا ما يقاسي قلبي لهفاً عليهْ

وكتب اليَّ في صبح يومٍ رقّت حواشيه وطاب الصبوح فيه

يا مَن بمرآهُ وطيب م حديثهِ تجلى غمومي
يا مؤنسي عند اللقآ ءِ وبهجتي عند القدومِ
يا فرع دوح المكرما تِ الغرّ والفخر الجسيمِ
من محتد العزّ الوسيم م ومنبت الاصل الكريمِ
يا عدّتي في النائبا تِ فديتَ من خلٍّ حميمِ
يا نور عيني يا حبيبي م يا جليسي يا نديمي

نجل الشقيقة انّ هذا م اليوم معتلّ النسيم
نسجتْ بهِ ايدي الصبا للشمس ستراً من غيوم
وكسا الربيعُ الارضَ ثو باً معلماً خضرَ الاديم
والنورُ كالنورِ المشعشع م في دجى ليلٍ بهيم
والطلّ رصّع روض نر جسها كجوٍّ بالنجوم
ومدبّجُ الازهار يحكي م الجند من زنجٍ وروم
لعبت بهِ ايدي النسيم م فماج يزحف للهجوم
فانهض لنغتنم السرو رَ بطردنا جيش الهموم
واترك فلاسفة الفنو نِ تخوض بالبحث السديمي
وتقول اصل الناس من طينٍ ومن قردٍ ذميم

ومنها

دَعْ عنك اجهاد القريحة م في مطارحة العلوم
فالى مَ نهمل راحة ال أرواح في تعب الجسوم
ومن العجيب بنا تنكّبُنا م عن النهج القويم
فَذَرِ الندامةَ فالمُدا مةُ كالسلامة للسقيم
واطلبْ مداواة الكلو م بِشربنا بنت الكروم
لنفوز بالحظ العظيم م مع النديم على القديم
من كفّ وسنان الجفو ن اغرّ ذي طبعٍ سليم
حلو الحديث كلامهُ فيهِ شفا القلب الكليم
ساجي اللحاظ مهفهف ال أعطاف ذي صوتٍ رخيم

رشأٌ تربّى بالدلا ل وشبّ في حجر النعيمِ
يرمي الفؤادَ باسهمٍ تصمي وتنفذ في الصميمِ
وقوامهُ ان ماس يحكي م غصن بانٍ مستقيمِ
عَذُبَ العذاب بحبهِ وغرامهُ اضحى غريمي
من ليس يعذلنا بهِ رأيُ السفيه ولا الحليمِ
هيا بنا نعصي بذلك م نصح عاذلنا الزنيمِ
ونطيع في لذاتنا وسواس شيطانٍ رجيمِ
ونفوز في وقت المتا بِ بعفو غفارٍ رحيمِ

ويشهد الله اننا لم نذق في ذلك اليوم مدامة او معسول رضاب ولم نتخذ نديماً ولا كان لنا جليسٌ غير كتاب ولا رُمينا برمح قدّ او سهام جفونٍ مراض ولا همنا في غير المروج والحدائق والرياض ولكن للشعرآء شأناً يفهمهُ من كان ذا قلب باسرار النظم عليم او ذاق طعم آية الكتاب الكريم والشعرآء يتّبعهم الغاوون الم ترَ انهم في كل واد يهيمون وانهم يقولون ما لا يفعلون

وقال يهنئ حضرة ذي السماحة صدر الصدور العظام ابي الهدى افندي الصيادي الرفاعي الانخم بنيلهِ رتبة قاضي عسكر الروملي الرفيعة

ربّ الندى ابو الهدى السيّد المولى السري
سليل ال المصطفى الـ هادي شفيع المحشرِ
زادت بهِ العرب الكرا مُ شرفاً لم يُنكرِ
وبلغوا بجدّهِ علوَّ سعد المشتري
همُ نجومٌ حولهُ وهو اجلُّ نيّرِ

احرز اسنى رتبةٍ بينهمُ ومفخر
بعصرنا ارّخته اوّلُ قاضي عسكرِ

١٢٩٨

وقال عفا الله عنهُ

ومليحةٍ قلبي لديها قد صار اهون ما عليها
قصدتْ تكامل حسنها لتزيد فتنة مقلتيها
فتمايلت وتضاحكت وغدت تزجّج حاجبيها
أنظرتُها مرآتها فعكستُ فتنتها اليها

وكتب الى ذي الوزارة العلاّمة منيف باشا الافخم

ايا منيف القدر يا عالي الهمم يا كامل الاوصاف يا رب الكرم
لا نزَع اللهُ سرابيلَ النِعَم عنك فسُدْ وارفل بها دون الامم
طابت معانيك وطبت لاجرَم يا سيدَ السيف ويا ربَّ القلم
فالجارُ والعرضُ لديك في حرَم والمال للآمال نهبٌ مقتسَم
وانت ليث المجد لا ليث الأَجم يا سيداً نيطَ لهُ بيت القدَم
بالعَمَد الاطول والفرع الأَشم هل لك أن تعقدَ في بحر الشيم
عارفةً تُضرِمُ ناراً في علَم ويُقصَر الشكرُ عليها .. قل نَعم
أما وإنعامكَ انهُ قسَم وثغرِ عزٍّ عن معاليك ابتسم
انك في الناس كبرءٍ في سقم فاسلم ودم بالسعد ماسحتْ دِيَم

وقال في مزيّن

يارُبَّ حلاّق بلوني بهِ اذاقني مرَّ العذاب الاليم

شمالهُ كالطورِ ثقلاً وفي يمينهِ موسى وخدّي الكليم

ثم لما كان الحسد من طبع الادنيآء والجاهلون لاهل العلم اعدآء ومن شيم اللئيم السافل ان ينتقص الكريم الفاضل نهض بعض الحسّاد فناصبوا فاضلنا العداوة وافتروا عليهِ قولاً زوراً وفعلاً يعلو فاضلنا عنهُ علوّاً كبيراً فعكّروا صفآء ايامهِ وسئمت نفسهُ الاقامة في الشهبآء مع شدة تعلقهِ بها فرحل عنها ولسان حالهِ يقول

سيذكرني قومي اذا جدّ جدهم وفي الليلة الظلمآء يُفتقد البدرُ

وأمّ مدينة بيروت فنزل بها ضيفاً كريماً وآنس من اكرام علمآئها واحترام ادبآئها ما اذكرهُ قول الشاعر

نزلتُ على آل المهلّب شاتياً غريباً عن الاوطان في زمن محلِ

فما زال بي اكرامهم واحتفآؤهم والطافهم حتى حسبتهمُ اهلي

وكانت كتبهُ اليّ في تلك المدّة متواصلة وفي جلها ثنآء على اكثر من تعرّف بهِ من اكارم بيروت وتعتبُ مرٌّ مستطيل على كثير من اهل وطنهِ فمن ذلك الابيات الآتية من قصيدةٍ لهُ

وحادثاتٍ أثرنَ وسواسي فانْ ابحْ ما عليّ من باسِ

افكر في حال بلدتي وبما آلت اليهِ ومالها آسِ

اندبها حسرةً وبي لهبٌ يصعد من زفرتي وانفاسي

فان اقسْ يومها بامسِ أقلْ يا وحشة الدار بعد ايناسِ

وكتب اليّ جواباً عن ابيات مداعبةٍ كتبتها اليهِ من منزل الشاعرة السيدة مريانا المراش قال غفر الله لهُ

حلّ بي نظمكم باحلى المواقع  قول لطفٍ ظرفَ الدعابة جامع
ورغبتم ومَن ذكرتم حضوري  في حماكم وان اكون المسارع
فجزاكم عما اشتهيتمُ خيراً  ربُّنا انهُ مجيبٌ وسامع
واطال الاعمار منكم ولا كا  نَ لكم بالذي تحبّون فاجع
وذكرتم لنا ضروباً من الحلوى  التي تأكلونها بالمرافع
وبها تصنعون اقراص شيبا  نَ ولوزينجاً وغير صنائع
ذا طعامٌ إن لذَّ فهو غليظٌ  كظّةٌ للرغيب غصةُ بالع
قلت في وصفهِ هو الله نافع  قل على ثقلهِ هو الله دافع
فانعموا بالتمامهِ واستلذّوا  والعقوا عقبهُ رؤوس الاصابع
اين هذا مما هنا يصلح الطا  هي طعاماً للهضم يصلحُ نافع
عندنا البحر نجتني افخر الاسـ  ـماك منهُ وتأكلون الضفادع
وجبالٌ نصيد منها صنوف ال  طير ما بين ناهضٍ ثم واقع
واذا لم يكن هنا غير انّ ال  حرَّ فيها يعيش دون منازع
فهو يكفي حظاً لقلبي وان سا  لتْ على غربتي غروب المدامع
لم تبقّ ليَ الاراذل بالشهـ  ـباء من مأربٍ ولا من مطامع
لا ولا اشتهي سواكم ولا أر  غبُ فيها من بعد تلك الوقائع
غير قرب الفريدة اللطف ذات ال  صون والحسن والذكا والبدائع
ربّةُ الفضل والفضائل مريا  نا التي ذكرها يسرُّ المسامع
والتي زانها الكمال اذا زا  نَ سواها الحلى وسدل البراقع
ان تكن اطعمتكمُ الآن تفاً  حاً شهياً نخلتموهُ كيانع

ذاك لا بِدْعَ انها بنت حوّا  وحديث التوراة في الامر ذائع
اشبهتها والامّ للبنت طبعاً  اقرب الشبه ما لذلك دافع
بَيد انّ التفاح في البرد لا ينـــضج والطعم منهُ بالحمض فاقع
وهو فجٌّ كالخلّ طعماً فانْ ما  لتْ الى اكلهِ فمن ذا يراجع
غير مستنكرٍ محبتها الاحـــماض حبُّ النسآء للحمض شائع
ما عسى ان يكونَ تفاحكم انّ  م لاثمارنا تحنُّ الاضالع
ولدينا الترنجُ اضحى يحاكي  أُكرَ التبرِ فهو اصفر لامع
وكذاك الرمّان فالحبُّ كاليا  قوت لوناً والقشر ابيض ناصع
يفضلان التفاح لوناً وحجما  وانا تعلمون في ذينِ والع
ذا غرامي طفلا غلاماً وشيخاً  وصبياً فتى وكهلاً ويافع
ولدينا من كلّ فاكهةٍ زو  جان من عرفها شذا المسك ضائع
كل ارضٍ لها نباتٌ لذا يخـــتلف النبت باختلاف المواضع
وبهذي البلاد انواع اثما  رٍ فماذا النقا ووادي الاجارع
وبودّي اذيقكمُ ثمر المو  ز الشهيّ اللذيذ يُشبع جائع
وكذا التمر وهو كالشهد طعما  طلعهُ كالنجوم في الافق طالع
وطويل الرماح من قصب السكّرِ م  مصّاً فما رماح المعامع
انما دبسنا مريقٌ[1] وما يغني م  وجود الاشيآء والدبس مائع
فاذا عدتُ نحوكم جئتُ منها  بالهدايا لكم متى أبتُ راجع

(١) دبسهُ مريق مثل يُضرَب في حلب لمن املق ولمن عجز عن مجاراة الشبان في ميادين اللهو والثاني هو مراد الشاعر هنا

وعسى ان يقدّرَ الله امراً  لتروني بادرتُ جرياً أسارع
ما على الله من عسيرٍ واني  لِسميع الدعآء بالذلّ ضارع
وهو حسبي نعم الوكيل ولن يخذلَ م  عبداً وافاهُ بالقلب خاشع

هذا هو السحر الحلال بل السهل الممتنع والغاية التي لا يدركها الاّ من ملك ناصية القريض واسترقّ رقاب المعاني وأسر حرّ الكلام وبلغ من حسن البيان والبلاغة وسلامة الذوق الشأو البعيد فكأنهُ رحمهُ الله اراد ان يعاتبني عما جآء في ابياتي من معنًى كان في النفس شيءٌ منهُ وهو يعلم ان السيدة مريانا لم تكن جاهلة ذلك بل ربما توهّم انها هي التي دفعتني اليهِ ثم اراد تفصيل ما جآء في ابياتي والاستطراق الى دواعي رحيلهِ عن الوطن فافتتح قصيدتهُ بردّ بضاعتنا الينا شاكراً داعياً وفنّد ابياتي بعد تفصيلها بالحجة الدامغة ورجّح برهانهُ وندب حالة وطنهِ بعد ان ابدى حنينهُ اليهِ ورشق اعدآءهُ بسهم نفذ في صميم قلوبهم ثم اشار الى اسباب فراقهِ باوضح بيان ثم عطف الينا متشوقاً بالطف عبارة ثم اخذ يفرغ لنا من جعبة المداعبة ما ظاهرهُ مجونٌ وخلاعة وباطنهُ ادبٌ وبراعة وهو في كلّ ذلك لا يتعدّى ظاهر الحقيقة وان كان يقصد المجاز ويورّي معاني لا تخفى على ذوي النباهة وهي نهاية الاعجاز ثم اختتم بالدعآء والخشوع وهو خير مختتم فكأنهُ اخذ القلم ونفخ فيهِ من روحهِ ثم قال باسم ربك تكلم فنطق بما لو كان بلغة الفرنج لقالوا افهذا سحرٌ ام انتم لا تبصرون . ومما كتب اليّ من بيروت

قد جدد الشوقَ الشديد كتابكم  بجوارحي وسرائري وضمائري
فاذا نظرتُ الى الوجود رأيتكم  في كل موجودٍ عيانَ الخاطرِ

ومما كتبهُ اليَّ من بيروت

قد جدّد الشوق الشديد كتابكم  بجوارحي وسرائري وضمائري
فاذا نظرت الى الوجود رأيتكم  في كل موجودٍ عيان الخاطرِ

.... اما ابياتك الظريفة الفصيحة البليغة فقد هزتني شوقاً وهاجت فيَّ الخواطر الشعريّة وعلى الحقيقة ان فصاحتها عراقية ... وقد اجبتك عليها فوراً بهذه الابيات

يا انيسي ما بين اهلي وناسي  وخليلي من دون كل خليلِ
لست والله للعهود بناسٍ  لا ولا عنك قطّ لي من بديلِ
ان قلبي يهوى الرجوع اليكم  وصوابي يقتادني للرحيلِ
والضرورات تقتضي عنكم البعدَ  ومن اين لي بصبرٍ جميلِ
وفؤادي الجزوع يضعف عن حمل  التياعِ الفراق والتحويلِ
صرتُ في غربتي وحيداً كئيباً  ما الى سلوةٍ ارى من سبيلِ
يا بروحي افديك كن عدّتي في الـ  خطب اذ كنت سلوتي في المقيلِ
وأدرِكِ الثأرَ من عدانا كما قلتَ  بفتكٍ معجّل التنكيلِ

وهنأ في بيروت الفاضل المرحوم بشارة باشا تقلا صاحب صحيفة الاهرام بعقد زواجهِ على السيدة بتسي كريمة المرحوم نعمة الله الكبابة الحلبي فقال

من لصبٍّ افنى الغرامُ اصطبارَهْ  ابعدَ الصدُّ والتجنّي مزارَهْ
مستهامٌ يكاد يقضي ولوعاً  سلب الوجد عقلهُ وقرارَهْ
خلب الحبُّ لبَّهُ واطال الـ  شوق والصبر ليلهُ ونهارَهْ
تيّمتهُ بديعةٌ ذات عجبٍ  هتكت باحتجابها أستارَهْ

ذات لحظٍ قد حار عقليَ فيهِ حين شاهدتُ غنجهُ واحورارَهْ
وجفونٍ فتورها كسر القلبَ م على ضعفها غدت جبّارَه
اخذت من سنا البدور ضياها ومن الظبي جيدهُ ونفارَه
قدّها اخجل الغصون واولى وجهها الشمس بهجةً وإنارَه
صدّها مع دنوّها جعل التعـــذيبَ عذباً حلاوةً بمرارَه
فهي مني كقاب قوسينِ قرباً ومنالاً كالانجم السيّارَه
عجبي من تواجدي ومشيبي زارني والشبابُ ابدى ازورارَه
والتصابي ان جآء بعد اكتهال فهو لا شكَّ حليةٌ مستعارَه
ما لمثلي وذكر وصل الغواني لم يكن بالحزوم مَن يَتشارَه
فلّ صبح البياض ليل صبآءي وأشبَّ المشيب في الفود نارَه
فدعاني من النسيب وهياً نتعاطى كأس السرور المُدارَه
في زواج الهُمام من آل تقلا ذي الخلال الفريدة المختارَه
الاديب الاريب ذي الفضل من عمَّـــرَ صرح العلا وشاد منارَه
حيث زُفت لهُ عقيلةُ قومٍ زيّنت بالكمال والحسن دارَه
بالرفا والبنين في فلك العزّ م لهُ الحظّ قد احلَّ جوارَه
ان ذا الاقتران خيرُ قرانٍ طالع السعد قد اجاد اختيارَه
فهو أُفقٌ ولا احاشي[1] ملاماً وهي بدرٌ ولست اخشى سِرارَه
قمت اسدي لهُ الثنا حيث كان الـ فضل والنبل والذكآء شعارَه
ولبتسي اهدي التهاني على الافـــراح ارّختُ ثم خير البشارَه

(١) لعلهُ — اخاف —

وكتب من بيروت ايضاً الى حضرة ناظر المعارف يومئذٍ ذي الوزارة العلاّمة النحرير منيف باشا وكان اعزّهُ الله من عشاق فضلهِ وآدابهِ

دعوتك يا ذخري لعلّك ترحمُ ... وجئتك من دهرٍ بغى اتظلمُ
وكان الكرام السالفون اذا اتى ... لهم شاعرٌ بالمدح جادوا وانعموا
ووالوا لهُ احسانهم وتفضّلوا ... عليهِ وان لم يعرفوهُ واكرموا
فلمْ صرتَ يا مولاي عنيَ معرضاً ... وانت ومَن اعطاك اكرمُ منهمُ
ومالي اراني حائراً ضاق مذهبي ... مع الودِّ منسياً وانتمُ انتمُ
ابيتُ على يأسٍ فابدي تجلّداً ... وقلبيَ يبكي والجوارح تلطمُ
وغيري من افضالكم فاز بالمنى ... وظل فؤادي باللظى يتضرمُ
وكيف قضى الرأي الشريف بخيبتي ... واهملني المولى المنيفُ المعظمُ
وفي مدحكم كالشمس سارت قصائدي اشتهاراً وحالي عنكمُ ليس تكتمُ
فلا انا بالعافي ولستُ بطالبٍ ... نوالاً ولا يخفى مرادي منكمُ
وقد كلّ من اجهادهِ الفكرُ فيكمُ ... واملتكم مما اقول وانظمُ
وان لسان الحال افصح مقولاً ... ورأيك يا ذا الفضل اعلى واعلمُ

ثم انهُ قصد القسطنطينية ونزل ضيفاً على ذي الدولة المنيف وكان كما تقدم القول وزير المعارف لعهد صدارة ذي الدولة والفخامة كامل باشا وكان حضرة الصدر ممن شملهُ بتعطفاتهِ لمعرفتهِ فضلهُ فالتمس فاضلنا من ذي الوزارة منيف باشا ان يعينهُ في ادارة المعارف بحلب بمنصبٍ يليق بهِ فاشار عليهِ حضرتهُ ان يلتمس منصباً في نظارة العدلية وانهُ وحضرة الصدر يساعدانهِ على نيل منصبٍ يليق بجدارتهِ لكنهُ ابى ذلك لميلهِ الغريزيّ

الى المعارف ولانهُ كان قد ملَّ من كثرة الاسفار وضجر من الغربة ومشاقها وكان يمني النفس بعيشةٍ هنيةٍ راضية في وطنهِ مردداً مع الشاعر

وقدماً عشقناها وان لم يكن بها انيسٌ ولا خلٌّ ولكنها وَطَنْ
بلادٌ الفناها على كلِّ حالةٍ وقد يؤلَفُ الشيء الذي ليس بالحسنْ

فاجاب حضرة الوزير المنيف سؤلهُ وعيَّنهُ امين خزانة المعارف ورئيس المحاسبة في دائرتها بحلب واضاف اليهِ منصب استاذ اول للُّغة الفرنسوية في المكتب الكبير الاعدادي ثم قال لهُ ان هذا دون ما يليق بفضلك ووجاهتك ولكن ان قدَّر الله فستنال بعدهُ ما يشرح صدور اهل الفضل. فعاد الى حلب وقد اعاد البشر الى قلوب محبيهِ والانس والفخر الى مريديهِ ولم يزل يخدم الدولة بذلك المنصب اجلَّ خدمة واولياء الامور عنهُ راضون وبفضلهِ مقرّون الى ان اتُّهم بتأليف وطبع قصيدة ( قبل ذلك العهد بزمن بعيد ) تخالف القوانين العثمانية في حديث ليس هذا محلهُ . فأُلقي في السجن بعد ان عُزل من منصبهِ وظل فيهِ سنتين وكان يزورهُ فيهِ اعيان القوم وفضلاؤهم وما برح في تلك المدّة مشمولاً بالعناية والرعاية من كبار اولي المناصب في الحكومة ولهُ وهو في السجن قصائد واشعار تضيق عنها هذه الترجمة غير اني لا اجد بدًّا من ذكر بعضٍ منها ليرى القارئ تصرّفهُ رحمهُ الله في المعاني واستيلاءهُ على زمام النظم في جميع الاغراض والفنون . قال بردَّ الله مضجعهُ يستغيث بعدل امير المؤمنين مولانا السلطان عبد الحميد خانْ الثاني اعزَّهُ الله

دام سعد السلطان عبد الحميدِ مستجدًّا بالنصر والتأييدِ

صاحب الشوكة القويّة والعزّ م الذي ليس فوقهُ من مزيدِ
ذو الخلال التي بها افتخر المد ح لصدق التعظيم والتمجيدِ
مسبغ الانعم التي قد توالت وغدت كالاطواق في كل جيدِ
مانع الملك دافع الافك عنا قامع الشرك رافع التوحيدِ
خلّد الله ملكهُ وغدت حسّادُ نعمآئهِ بجهدٍ جهيدِ
وحباهُ نصراً عزيزاً وكان ال نجح منهُ بقرب حبل الوريدِ
وغدا من اطاعهُ في نعيمٍ واعاديهِ في عذابٍ شديدِ
لو على فضلهِ يخلّدُ شخصٌ كان احرى الانام بالتخليدِ
احرز العزّ آلُ عثمان بالتد بيرِ والرأي ذي الصواب السديدِ
وهو فيهم بالفضل واسطة العقدِ م وتاج العلى وبيت القصيدِ
كم لهُ وقعةٌ باعدآئهِ شا ب لها بالاهوال فودُ الوليدِ
بجيوشٍ طمت عديداً وهاجت فهي بحرٌ وموجهُ من حديدِ
خفقت حولهُ من العزّ رايا تٌ سمت للسمآء فوق الجنودِ
باسقاتٌ لها الاسنّة تيجا نٌ على رأسها كطلع نضيدِ
خصّها ربنا بفتحٍ مبينٍ يتسنى لها ونصرٍ مجيدِ
كم لشجعانهِ وقائع فخرٍ مارستها ببطشها المعهودِ
خاضت المعمعات بالحرب خوضاً تتلق العدى ببأسٍ شديدِ
فاصطلت نارَها وأُزلفت الجنّة م للمتقين غير بعيدِ
يا مليك الزمان عطفاً على الجا ني المعنّى المضنى الكئيب الشريدِ
انت ظلُّ الله الظليلُ على الار ض ومأمونهُ وخير رشيدِ

كن من الكاظمين للغيظ والعا فين بالناس عن ذنوب العبيدِ
فاعفُ عني فانت للعفو اهلٌ وأقلْ عثرتي بفكّ قيودي
وأعدني لحسن رأيك اني خادمٌ صادقٌ وخيرُ ودودِ
فالوشايات والسعايات من اعـــدايَ بادي ضغائنٍ وحقودِ
وانا عائذٌ بحلمك راجٍ رحمةً منك للذليلِ الطريدِ
فانعطف سيدي ومالك رقي واستمع صوت لائذٍ منكودِ
وابقَ فخراً للملك تزهو بك الدنـــيا ودم سالماً بعيشٍ رغيدِ

وكتب اليَّ من السجن ايضاً عندما نُعي اليهِ الغصن الرطيب شطر كبدي وشقيق روحي المأسوف عليهِ اسكندر وقد قصفتهُ المنيّة في مرسيليا فقال

أفي اهل ذا النادي عليمٌ اسائلهْ فاني لما بي ذاهب اللبّ ذاهلهْ
سمعتُ حديثاً أُحمد الصمُّ عندهُ يُخبَّل واعيهِ ويخرس قائلهْ
فهل من جواب تستغيث بهِ المُنى ويعلو على حق المُصيبة باطلهْ
وقدرابني من شاهد الحال ان ارى وجوماً على كل الوجوه دلائلهْ
فهل غاب عنا بدرنا ثم ينجلي ام اختار هجراً لا يُرجَّى تواصلهْ
فاني ارى ضمن العيون كآبةً تدلّ على انّ القلوب ثواكلهْ
دعوني فما هذا اوان بكائهِ سيأتيكمُ طلّ الدموع ووابلهْ
ولا تنكروا حزني عليهِ فانني حليف جوًى صبٌّ أُصيبتْ مقاتلهْ

خطبٌ هائلٌ جلل وحادثٌ حار لوقعهِ اللب واندهل ومصابٌ المّ فألم ورزءٌ أجمني فصمتُ وما عسى ان اتكلم فيا لها من داهيةٍ أصمّتْ منا القلوب وأصمّت المسامع ونازلةٍ يحق لها على اعيننا نزف الدم المسكوب

بعد استنزاف المدامع ويا اسفاه على الغصن النضير الرطيب وواحسرتاه لبُرْد ذياك الجمال القشيب وواويلاه لبدرنا كيف تغيَّب تحت التراب وكان الاولى بهِ ان يُصان في قلوب الاهل ومهج الاحباب ولكن حيث لا حيلة في دفع ما سيكون ولا مناص لاحد من تجرُّع كاس المنون فيا حبيبي ويا ولدي ويا اعزّ الخلق على فؤادي واغلاهم على كبدي اني وان قاسمتكم الاسف على هذا المُصاب وتجرَّعت معكم من لوعتهِ امرّ صاب اناشدكم بحق مَن تحبُّون واستحلفكم باسم مَن تعزّون ان تتدرعوا بالصبر الجميل ولا تتهافتوا على التفجع فلحزننا بكاءٌ طويل بل تذكّروا انّ بوجودكم حياةً لعيالكم وتعزيةً لذويكم وآلكم فصبراً لقضاء الله في فقد مَن ذهب وشكرًا لنعم الله على بقاء مَن وهب ولنا خير عوضٍ بسلامتكم الغالية المطلوبة وافضل خلفٍ بحياتكم العزيزة المحبوبة والسلام من المحزون

خالكم

وكتب اليَّ بعد ذلك وقد استبطأ زيارتي لهُ في السجن على اثر وفاة الشقيق الحبيب المتقدم ذكرهُ

تجاوزتَ في الصدّ حدّ الزياده فلا تجعل الهجر خُلقاً وعاده
فعندي اليك اشتياقٌ شديدٌ وقلبك يشهد هذي الشهاده
وعودتني منك قرباً وودّاً وما يطلب القلب الاّ اعتياده
عهدتكَ ذا خُلقٍ جيّدٍ لذلك اطلب منك الاجاده
فان انت اتحفتني بالحضورِ فقد ادرك الحالُ اقصى السعاده

وكتب اليَّ بعد ذلك وقد أُخبر بعزمي على السفر الى مدينة مرسيليا لسبب

فقد الشقيق الحبيب فقال

. . . . . ثم انهُ وان كانت مواجهاتنا اليوم اقلّ من ان تُذكر فمع ذلك هي عندي بالمنزلة التي اترك لقلبك تقدير قيمتها لديّ ومعزّتها على فؤاد خالك هذا التعِس واقول مع القائل

وَجُودَكَ بالمُقام ولو قليلاً  فما فيما تجود بهِ قليلُ

وكل شيء منك عندي غالٍ ولكن اذ لاحيلة بيدي فصبرٌ جميل على ما تحكم الايام فاذهب اذاً مصحوباً بالسلامة والتوفيق وعد الينا سالماً في اقرب وقتٍ وطريق . اما موشح الحلّي الذي وازنتهُ فكأنما كان فألاً عليّ بسفرك لانهُ منظوم لمحبوبٍ لهُ قصد السفر فاذا حذفنا منهُ ابيات الغزل والنسيب نراهُ من واقعة حالنا قريب وهاك الابيات التي توافق الغرض مع بعض حذفٍ وتبديل

عزمتَ يامؤنسي على السفرِ  وا طولَ شوقي اليك واكدري
يُطمعني في لقاك قولهمُ  في كلّ شهرٍ يُجلى سنى القمرِ
تمهّلْ مَضّني جفاكْ  تفضّلْ ذُبتُ من نواكْ

الى آخر ما كتبهُ رحمه الله . وهاك موشحهُ الذي اشار اليهِ وغدت الرّقة وقفاً لهُ والبديع مقصوراً عليهِ

أذاع ستراً اصونهُ سقَمي  وما جرى قطُّ ذكرهُ بفمي
وأعيُني افصحت وقد فضحت  ما في فؤادي من لوعة الالمِ
فيظهرْ وهوَ لا يُقالْ  ويُذكرْ دونَ ما سؤالْ
صبري كصدرٍ من الجوى حرِجِ  فان أبُحْ ما عليّ من حرَجِ

ونار هجر الحبيب ان لفحت تُطفى بدمعٍ يفيض كاللججِ
اذا مرَّ طيفهُ ومالْ وزوَّرْ زورةَ الخيال
فداهُ أمي من معرضٍ وأبي كثيرِ دلٍّ صعبِ القيادِ أبي
جوارحي من صدودهِ انجرحت ولحظهُ والقوامُ يفتكُ بي
بمُشهرْ محكم الصقالْ وأسمرْ صال واستطال
بدرٌ حكى وردُ خدّهِ الشفقا وقد قسا قلبهُ وما شفقا
قد نصحت مقلتاهُ حين صحتْ اوحى بها لحظهُ وما نطقا
فحذّرْ اذ سطا وصالْ وأنذرْ أنَّ لا وصالْ
مرارةَ الهجر كابدت كبدي وخلّد البعدُ عنهُ في خلدي
ناراً بزند الغرام قد قُدِحت منهُ واوهى تجلدي جلدي
تُسعّرْ ان دنا وجالْ وكرّرْ لفتة الغزال
في الثغر خمرُ الرُضابِ كالضربِ دُرُّ الثنايا عليهِ كالحببِ
بالسلسلِ العذب كأسهُ طفحت فالسكر فيهِ يدعو الى الطربِ
بكوثرْ رشفهُ حلالْ مكرّرْ وِردهُ زُلال
يا فاتني مرْ أطعكَ فاحتكمِ وان اكن قد اسأتُ فانتقمِ
صفاحُ عينيك قطُّ ما صفحت ملكت روحي فلمْ ابحتَ دمي
أيُهدرْ تاركُ القتالْ وتُعذرْ بعد ذي الفعال
اسرفت يا قاتلي بهجرك لي فضاع صبري وقلّ مُحتملي
وادمعي كالغمام قد سفحت وبرّح الوجد بي من الوَجلِ
فكدّرْ صفوَ كل حال وقد مرّ طعمهُ وحالْ

قوامك الغضُّ زينَ بالهيفِ وجسمك البضُّ خصَّ بالترفِ
وغرة الحسن فيك ما برحت تثنيك تيهاً بالعُجْبِ والصلفِ
تبختر وازْهُ بالجمالْ فما ضرّ لطفك الدلالْ
قصائدي في هواك أُنشدُها والقلب واللبُّ فيك قد شدُها
من فتةٍ صرتُ بالهوى افتضحت اضلّها الله كيف تُرشدُها
فأنكرَ حجتي وقالْ مقدّر دفعهُ محالْ

فكأنهُ رحمهُ الله وبرّد بشآبيب المغفرة مثواه قد تفأل بهِ على دنوّ اجلهِ فودعتهُ ثاني يومٍ من اخذي كتابهُ وموشحهُ السالفي الذكر وقصدت مرسيليا على رجآء صدور العفو السلطاني عنهُ في تلك الايام وقرب لقآئهِ وقد أُفرج عنهُ كما انتُضيَ من غمده الحسام بعد ان قضى فيهِ عامين كانا عار الزمن اللئيم وعيب العصر السقيم ولم اكد استقرّ في مرسيليا حتى ورد اليَّ نعيهُ وقد وافتهُ المنيّة فجأةً في السجن قضى بدآء القلب في صبح الرابع والعشرين من شهر كانون الاول للسنة الثانية والتسعين بعد الثمانمائة والالف عن ستة وخمسين عاماً قضاها بين اسفارٍ مستمرّة واحوالٍ مرّة وهمومٍ مستقرّة وهو يقاوم امواج الخطوب ويلاقي إعصار الكروب وسفينة حظهِ تعوم فتتقهقر وخطواتهُ الى المعالي تكاد في الهوآء تتعثّر وسهمهُ يطيش فلا يصيب وقد اطرب نعيبُ الغربان وما اطرب هذا العندليب فسبحان ميسّر البخوت ورافع التحوت . ولما ذاع في المدينة نعيهُ واظلم صبح ذلك اليوم واكفهرّ عشيهُ تقاطر آلهُ واصحابهُ ونقلوهُ على عربةٍ الى منزلهِ والآداب تبكي وتعول عليه والقريض يندب ويولول حواليه وقد

اندكَّ للمكارم طودٌ من ارفع الاطواد وتقوَّض للعلوم عمادٌ وايُّ عماد وهوى نجم الفصاحة اللامع وغار بدر المعارف الساطع وتكورت شمس الذكاء والنُهى وأُلقي عليها امنع حجاب وسُدَّت ينابيع العرفان والحجى بثقيل الحجر ورُدمت بالتراب رحمهُ الله عداد حسناتهِ واجزل لهُ الاجر والثواب

وقد رثيتهُ وانا في مرسيليا بهذه القصيدة التي اجعلها ختاماً لهذه الترجمة

ضاق الكلام فلم اجد لرثائهِ غير الدموع تفيهِ حق ولائهِ
ما كنت احسب عند ما ودَّعتهُ أنْ ذاك آخر موقفٍ للقائهِ
يا كوكباً قد غاب عنا نورهُ فاطال ليل الحزن في شهبائهِ
يا ملبسي ثوب التفجُّع والاسى يا تاركاً قلبي رهين شقائهِ
يا سالباً من مقلتي طيب الكرى كدَّرت مني العيش بعد صفائهِ
لم انسَ لا والله آخرَ عهدنا يوم النوى والجفن جاد بمائهِ
ودعوتَ لي بالعود محموداً فلمْ قطعتَ من ذا الصب حبل رجائهِ
قالوا قضى الدلالُ قلتُ لهم هوى بدر العلوم المعتلي بسمائهِ
وتكوَّرت شمس المعاني بعد ما كانت تضيء بهِ بافق علائهِ
مَن للفصاحة والبلاغة والحجى مَن للقريض نعد من اكفائهِ
من للخطابة والفكاهة بعدهُ يتلو بدائعها على جلسائهِ
ويل المعارف قد مضى دلاَّلها بل ربُّها بصفاتهِ وسنائهِ
فالفضل من اسمائهِ والنُبل من قرنائهِ والعقل من آرائهِ
قد عاجلتهُ يد المنون بسهمها تباً لدهرٍ كان من اعدائهِ
انَّ المصيبة فيهِ عمَّت كل مَن قد قام في ذا العصر من علمائهِ

جزعت لمصرعهِ الشآمُ وحقُّها ... فلشدَّ ما اعتزّت بنور ضيآئهِ
كان الكلام اسيرهُ والنظم في ... ثوب الجمال يسير تحت لوآئهِ
والسحر من آياتهِ واللطف من ... نفثاتهِ والظرف من انبآئهِ
رُزئت بهِ اهل النباهة والنهى ... والمجد ناح على انصرام هنآئهِ
مَن للمكارم والعوارف بعدهُ ... من يجد الملهوف يوم عنآئهِ
قد كان محمود السريرة صادقاً ... بالودّ مثل النور عند جلآئهِ
قد كان قوّال الحقيقة صادعاً ... بالحق مثل السيف عند مضآئهِ
قد كان في نقد الكلام موفقاً ... سبّاق غايات بفضل ذكآئهِ
ماذا اعدّد والكلام يفوتني ... في ندب سيّدهِ ونظم رثآئهِ
دفنوك في لحدٍ فكيف رضيتهُ ... يا نازلاً بالقلب من سودآئهِ
فلئن بعدتَ فلست الا البدر زا ... دَ علوُّهُ في نورهِ وبهآئهِ
خلَّفتَ بعدك ذا شجونٍ دمعهُ ... يُذكي ضرام الحزن في احشآئهِ
مهما تقادم عهد نأيك سيّدي ... فهو المقيم على عهود وفآئهِ
واليك طول حنينهِ وشجونهِ ... وعليك فرط عويلهِ وبكآئهِ

وقلت لينقش على ضريحهِ

ها هنا اليوم ثوى بدرُ النهى ... بعد ما كان ينير الخافقين
ها هنا قد الحدوا بحر الحجى ... فيلسوفَ القُطر نظّامَ اللجين
ذاك جبرائيل دلاَّل الذي ... فضلهُ قد ضآء مثل الفرقدين
يا اولي الفضل الثموا هذا الثرى ... واندبوهُ اثراً من بعد عين

تمت

DATE DUE

892.78:D144YhA:c.1
الحمصي، قسطاكي
السحر الحلال في شعر الدلال او ترجم
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01040039

American University of Beirut

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT
UT VITAM HABEANT ABUNDANTIUS HABEANT
1866

B
D 143 A

General Library

892.78
D144YhA
C.1